إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الثانية – العدد السادس – صيف ١٣٩١ش/ حزيران٢٠١٢م

الدور الحضارى لأبى على القالى فى الأدب الأندلسى

علی باقر طاهرى نيا*
سيد مهدى مسبوق**
شهلا زمانى***

الملخص

قد أولى أهل الأندلس بالثقافة الإسلامية واللغة العربية اهتماما بالغا وعملوا على نشرهما، فازدهرت اللغة والأدب فى الأندلس؛ فمن ثم يعدّ التراث الأدبى واللغوى العظيم الذى خلفه لنا الأندلسيون من نتاج ذلک الاهتمام.

من كبار الأدباء الذين أسهموا فى ترسيخ الثقافة الإسلامية والأدب العربى فى الأندلس هو أبوعلى القالى الذى عمل على تأسيس المذهب الأدبى وتعليم أبناء الخليفة الأموية وجمع الكتب ونقل أهم المصادر العربية إلى الأندلس. ويعتبر القالى رائد كتابة المعجم الأدبى فى الأندلس وإماما فى اللغة وعلوم الأدب، وقد قاد فى الأندلس حركة لغوية ضخمة بمؤلفاته اللغوية بحيث تخرج عليه نفر غير قليل من اللغويين، ولقيت مؤلفاته صدى واسعا فى الشرق الإسلامى وغربه.

الكلمات الدليلية: أبوعلى القالى، الحضارة، الأندلس، الأدب العربى.

---

*. أستاذ بجامعة بوعلى سينا – همدان، إيران. Smm.basu@yahoo.com
**. أستاذ مساعد بجامعة بوعلى سينا – همدان، إيران.
***. خريجة الماجستير بجامعة بوعلى سينا – همدان، إيران.

التنقيح والمراجعة اللغوية: د.هادى نظرى منظم
تاريخ الوصول: ١٣٩٠/١٠/٢٠هـ. ش
تاريخ القبول: ١٣٩١/٤/٨هـ. ش

المقدمة

اتسعت دائرة الفتوحات الإسلامية فى القرن الأول الهجرى واستمرت من الحجاز إلى الشام ومنها إلى إفريقية والأندلس ودخل المسلمون فى الأندلس فى نهاية القرن الأول الهجرى وأسسوا حكومة إسلامية امتدت حتى نهاية القرن التاسع الهجرى. نشهد فى هذه الحقبة المديدة من التاريخ الإسلامى فى الأندلس ظهور جيل من الأدباء الذين قد برعوا فى الأدب وحاولوا محاكاة إخوانهم المشارقة ولاسيما فى القرنين الأول والثانى، ومرد ذلک إلى أن جلّ الأدباء الذين ظهروا بصقع الأندلس فى هذه الحقبة كانوا من الذين هاجروا من المشرق وجاؤوا بكل مخزونهم الأدبى والعلمى إلى المغرب وعالجوا نفس الأغراض والفنون التى كانت شائعة لدى المشارقة.

هذا وقد اتسمت الحياة فى الأندلس بالرغبة المستمرة فى الارتباط الفكرى والاحتكاک الثقافى بالمشرق زمنا طويلا ولكننا نلاحظ بروز العوامل الأندلسية الذاتية بشىء من التدرج والتمهل. وإذا وقفنا عند المخزون الأدبى والثقافى فى الأندلس وجدنا أنه يقدم نتاجا غزيرا وأسماء لامعة فى تاريخ الأدب العربى، أسماء الذين كان أهل الأندلس يعتزون بهم ويفتخرون بمكانتهم السامية فى الأدب العربى؛ منهم أبوعلى القالى، الكاتب اللغوى الذى نال شهرة طائرة بمؤلفاته القيمة التى كانت ولاتزال مصدرا أدبيا يرجع إليه الأدباء واللغويون للإفادة منه والارتواء من منهله العذب.

وهذا المقال يبحث عن دور أبى على القالى فى الأدب الأندلسى، وهو قسمان: فى القسم الأول نلقى الضوء على حياة أبى على القالى وآثاره ونتناول الأدب الأندلسى فى إيجاز. أما القسم الثانى فنتوقف فيه عند الدور الحضارى لأبى على القالى فى الأدب الأندلسى. ونسعى من خلال هذه البحوث أن نجيب على الأسئلة التالية:

١. ما هو الدور الحضارى لأبى على القالى فى الأدب الأندلسى؟
٢. ما هو الدور الذى قام به القالى فى تطوير كتابة المعاجم فى الأندلس؟
٣. ما هو الدافع وراء رحلة القالى إلى الأندلس؟

أبوعلى القالى: حياته وآثاره

هو أبوعلى إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هرون ابن عيسى بن محمد بن سلمان

القالى اللغوى، جده سلمان مولى عبد الملک بن مروان الأموى. (البستانى، لاتا: ٦٢١) ولد بمنازجرد من ديار بكر، فنشأ بها ورحل منها إلى العراق لطلب العلم وذلک فى سنة ثلاث وثلاثمائة للهجرة. (عميرة الضبى، ٢٠٠٥م: ٢١١)

قرأ فى بغداد على كبار العلماء وأئمة الثقافة وجهابذة الرواة من مثل البغوى (ت ٣١٧هـ) والعدوى (ت ٣١٩هـ) والسجستانى (ت ٣١٦هـ) وابن صاعد (ت ٣١٧هـ) وابن درستويه (ت ٣٤٧هـ) والزجاج (ت ٣١١هـ) والأخفش الصغير (ت ٣١٥هـ) وابن دريد (ت ٣٢١هـ) ونفطويه (ت ٣٢٣هـ) وابن سراج (ت ٣١٦هـ) وابن الأنبارى (ت ٣٢٨هـ) وغيرهم من أعلام العلماء الذين يروى عنهم وينوه بعلمهم. (الخفاجى، ١٩٩٢م: ٢٥٠)

خلف القالى آثارا كثيرة، منها: البارع فى اللغة، المقصور والممدود، النوادر والأمالى، ذيل النوادر، فعلت وأفعلت، أفعل من كذا، الإبل ونتاجها وجميع أحوالها، حلى الإنسان والخيل وشياتها، تفسير القصائد والمعلقات وتفسير إعرابها ومعانيها، مقاتل الفرسان، فهرسة أبى على البغدادى.

بدأ نبوغ القالى فى علوم اللغة والأدب وأخذت شهرته تزداد فى حلقات العلم والثقافة فى بغداد وجلس للتعليم والإفادة وظل ربع قرن مقيما فى بغداد متعلما ومعلما ومحققا ومفيدا حتى جاءت سنة(٣٢٨هـ) فكانت سنة تطور كبير فى حياة القالى الثقافية والأدبية. (المصدر نفسه: ٢٥٠)

ولما استقر الأمر للأمويين فى الأندلس قد بذلوا جهودا حثيثة لأن يجمعوا ما تركوه فى بلاد المشرق من ثقافة وحضارة، إذ كان الشرق منذ بداية القرن الثانى الهجرى مورد العلوم ومنزل الثقافة، فلم يجد الأمويون بدا من أن يولوا وجوههم شطر الشرق عندما أرادوا نشر العلم والآداب فى بلاد الأندلس، ولم يجدوا بدا من أن يقتنوا الكتب المشرقية عن طريق تشجيع الرحلة إلى بلاد الشرق وتشجيع الوافدين منها. (الجيلالى السلطانى، ٢٠٠٧م)

أطوار الحكم فى الأندلس

قدم العرب إلى الأندلس بتراثهم الأدبى الأصيل ففتحوا عيونهم على أفق رحب

وطبيعة جديدة ولكنهم لم يذوبوا تماما فى المحيط الجديد ولم تذهلهم المفاجأة فيتيهوا بعيدا عن تراثهم العربى العريق فى حين أنهم لم يتمردوا فى الوقت ذاته على مقتضى حياتهم الجديدة فى إقليمهم الجديد وإنما كانوا معها كالكائن الحى فى تبادله المثمر ومؤلفاته الدائمة مع الحياة، فكانوا يحاولون من جهتهم إخضاع المحيط الجديد إلى الشروط التى يطيقون احتمالها بينما كان هذا المحيط بدوره يحاول أن يجد ما استطاع من تباينهم معه وتمردهم عليه. (الدغلى، ١٩٨٤م: ٧٢) وانقسمت أدوار الحكم فى الأندلس إلى:

عصر الخلافة الأندلسية (٣٠٠- ٤٢٢ هـ): فهو عصر نضج العلوم والفكر الأندلسى، ونظرا لطول هذه الفترة أولاً ولتسهيل دراسة الفكر الأندلسى خلال هذا العصر ثانياً، ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١. فترة الخلافة(٣٠٠-٣٦٦هـ): وتولى الحكم فيها الخليفة الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ) وابنه الحكم المستنصر(٣٥٠-٣٦٦هـ). (السامرايى وزملاؤه، ١٩٩٩م: ٣٢٧)

٢. فترة الحجابة(٣٦٦-٣٩٩هـ): وهى الفترة التى سيطر فيها الحاجب المنصور وأولاده على الخلافة الأندلسية.

٣. فترة الفتنة (٣٩٩-٤٢٢هـ): وأدت إلى قيام عصر الطوائف.

نهضت الحركة العلمية فى فترة الخلافة (٣٠٠-٣٦٦هـ) نهضة شاملة وكان من مظاهرها اتضاح الشخصية العلمية للأندلس واستقلالها؛ فقد شجع الناصر وابنه الحكم العلماء المشارقة القادمين إلى الأندلس وأغدقا عليهم جوائز سنية وعملا على جلب الكتب القيمة، وترجما الكتب الأجنبية المهمة وحثا على التأليف والبحث فى مختلف المجالات. والحاكم فى هذه الفترة كان محبا للعلماء مكرما لهم، فكان يستقدمهم من المشرق ويرحب بهم ويكرم مثواهم ويرفع منازلهم؛ ومن بين العلماء المشارقة الذين وفدوا إلى قرطبة أبوعلى إسماعيل بن القاسم القالى اللغوى. (سالم، لاتا: ٣١٣) فإذا كان الناصر قد أحسن وفادة أبى القالى وجعله مؤدباً لابنه الحكم، فإن الخليفة الحكم اشتهر بحبه للكتب؛ فقد كانت له مكتبة تضم ٤٠٠ ألّف مجلد وكان يحرص على اقتناء الكتب من أى مصدر، فلذلک نهضت الأندلس علميا فى شتى الميادين خلال هذه الفترة. (المصدر نفسه: ٣١٣)

أسباب ازدهار الحياة العلمية والأدبية فى الأندلس

هناک أسباب عديدة ساعدت على ازدهار الحركة العلمية والأدبية فى الأندلس، أهمها:

١. دعوة العلماء المشارقة إلى الأندلس للإفادة من علمهم وأدبهم، ومن ذلک على سبيل المثال رحلة أبى على القالى.

٢. رحلة بعض الأندلسيين إلى المشرق، ممن ندبوا أنفسهم لتحصيل علم من علوم المشارقة والتبحر فيه، ثم العودة إلى الأندلس لنشر ذلک العلم بين أهله. (عتيق، لاتا: ١٥٠-١٥١)

٣. جمع الكتب وإقامة المكتبات العامة يؤمها الدارسون والباحثون. (المصدر نفسه: ١٥٤)

٤. اهتمام الأمراء والخلفاء الأندلسيين بالعلم والعلماء والتنافس فى تقريبهم حيث إنهم لم يستوزروا إلا من كان أديبا أو شاعرا أو عالما، وهذا يعنى أنهم لم يقفوا بمعزل عن الحركة العلمية والأدبية والفنية فى الأندلس.

والجدير بالذكر أن المرحلة الأولى للأدب العربى فى الأندلس هى مرحلة انتقال الأدب المشرقى إلى المغرب فى غير تبديل ولا تعديل. أضف إلى ذلک أن الثقافة الأدبية فى الأندلس كانت فى معظمها استيحاء للأدب المشرقى، وأن رسل الثقافة المشرقية كانوا من أشد عوامل التأثير المشرقى. كانت الثقافة فى البداية أدبية ولغوية ودينية وبعد ذلک شملت شتى فروع المعرفة، وكانت هذه العلوم وافدة إليهم من أرض الأجداد فى المشرق فأكبّوا على قراءتها. (محمد، ٢٠٠١م: ٢٨)

الدور الحضارى لأبى على القالى

كان أبوعلى القالى (ت ٣٥٦هـ) من خيرة من وفدوا إلى الأندلس؛ استقدمه عبدالرحمن الناصر (ت٣٥٠ هـ) لتأديب ابنه، وكان هذا الوافد قد تثقف ثقافة واسعة فى المشرق، وأخذ كثيراً عن شيوخه وخاصة ابن دريد والأخفش، فى وقت كان المشارقة قد قطعوا شوطاً بعيداً فى جمع اللغة والشعر، كما صنع الأصمعى فى أصمعياته والمفضل

الضبى فى مفضلياته، فحوى أبوعلى ذلک وأدخله الأندلس فسکن قرطبة وبها نشر علمه فلجأ إليه الناس فسمعوا منه وتأثروا به، وألف کتبا کثيرة. (الجيلالى السلطانى، ٢٠٠٧م)

أما فى مجال اللغة، فقد تأسست فى هذه المدرسة الدراسات اللغوية فى الأندلس وذلک بعد قدوم أبى على القالى، الذى وفد على الأندلس عام (٣٣٠ هـ/ ٩٤١ م) وحمل القالى إلى الأندلس کثيراً من علم المشرق وأدبه على نحو دواوين امرىء القيس وزهير والنابغة والخنساء والأخطل وجرير وغيرهم. هذا بالإضافة إلى کتب الأخبار واللغة، کما ألّف کثيراً فى الدراسات اللغوية وأملى على طلبته الأندلسيين کتابه الأمالى. (السامرايى وزملاؤه، ١٩٩٩م: ٣٢٨)

أقام أبوعلى القالى ببغداد خمسا وعشرين سنة ذاع فيها صيته وعمّت شهرته ولمّا کان الخليفة عبد الرحمن الناصر الذى رفع منار العلوم والفنون فى الأندلس وأدخل فيها مفاخر کلّ جهة، وزينة کلّ بلد، بدأ يحترم العلماء ويجلّهم، ويقدرّهم أعظم تقدير، لأنهم روح الأمة وحياتها، ويعمل على إنهاض أمته بنشر العلم لتسمو إلى مراقى الفلاح ولما سمع عبد الرحمن شهرة أبى على القالى فى اللغة والأدب کتب إليه ورغبه فى الوفود عليه لنشر علمه والاستفادة من معارفه. (القالى، لاتا: المقدمة)

کان نزوله فيها فاتحة عهد لغوى عظيم واستقبله الناصر استقبالا کريما وأحسن هو وابنه الحکم رعايته وإغداق المال عليه ونشط فى التأليف والتدريس بقرطبة وضاحيتها الزهراء حتى وفاته سنة ٣٥٦هـ (ضيف، ١٩٨٩م: ٩٢)

أخذ القالى يلقى محاضراته ودروسه فى حلقات مسجدها الجامع، فأورث أهل الأندلس علمه، وأقبل عليه أهل الأندلس للافادة والتعليم والتأدب من دروسه التى کان يلقيها من روايته وحفظه فى کل يوم خميس بقرطبة، فى المسجد الجامع بالزهراء، وکان أبوعلى واسع العلم کثيرالرواية، طويل الباع فى علوم الأدب واللغة، مما شهد به علماء عصره، فسمع الناس منه، وقرأو ا عليه کتب اللغة، والأخبار والأمالى، وعظمت استفادتهم منه. من تلاميذه فى هذه الفترة مؤلف کتاب مختصر العين وإمام اللغة والأدب فى الأندلس فى عصره وسواه. (الخفاجى، ١٩٩٢م: ٢٥٣) کان قدوم القالى إلى قرطبة يمثل نهضة فى الدراسات اللغوية والأدبية، فعنه أخذ الأندلسيون واتخذوه إماما وحجة.

(سالم، لاتا: ٣١٣ –٣١٤)

كان أبوعلى إماما فى اللغة العربية، متقدما فيها فأفاد الناس منه، وعولّوا عليه، واتخذوه حجة فيما نقله وكانت كتبه على غاية التقييد والضبط والإتقان، وقد ألف فى علمه الذى اختصت به تآليف مشهو رة تدل على سعة علمه وروايته وحدّث عنه جماعة، منهم أبومحمد عبد الله بن الربيع بن عبد الله التميمى، ولعله آخر من تحدث عنه. (الحموى،١٩٨٠م: ٣١)

دور القالى فى تطوير الحضارة الإسلامية

للقالى دور ريادى فى تطوير الحضارة العربية الإسلامية ، ويعود ذلك إلى أسباب، منها:

أ. كثرة مؤلفاته: وهى الأمالى والبارع وكتاب تفسير القصائد والمعلقات وغيرها.

ب. وفرة تلاميذه: قرأ على القالى عدد من الطلبة فى قرطبة أشارت إليهم كتب التراجم الأندلسية وحصرهم صاحب كتاب "أبوعلى القالى" فى ثمانية وأربعين تلميذا قرأوا عليه وجالسوه، منهم أبوبكر محمد بن الحسين الزبيدى (ت٣٧٩هـ) وأبوبكر بن القوطية (ت٣٦٧هـ) والحاجب المنصور بن أبى عامر(ت٣٩٢هـ) ويوسف بن هارون الرمادى وغيرهم.

وظهر تأثير هؤلاء عن طريق مؤلفاتهم وإبداعاتهم، وأصبحوا فيما بعد أساتذة لهم حلقات يقومون فيها بالتدريس، وكانوا الأعمدة الأولى التى نهض بها التراث اللغوى والأدبى، وسار فى طريق الكمال عن طريق الأجيال التى جاءت بعدهم وتلمذت لتلاميذهم. (المصدر نفسه: ٣٧)

ج. جلب الكتب: أتى القالى إلى الأندلس بمجموعة كبيرة من المؤلفات فى اللغة والأدب تضم دواوين شعراء جاهليين وإسلاميين وعباسيين وكتب الأخبار، وقد وجدت هذه المؤلفات صدى واسعا عند المثقفين وشداة الأدب، وأثرت فى الثقافة الأندلسية وبذلك يكون القالى قد أسهم بشكل ملموس فى توجيه الذوق الأدبى وتشجيع الاتجاه المحافظ فى الأدب الأندلسى عن طريق ارتباط الأدباء بالدراسات التى أرساها ودعمها. وفضلا

عن ذلک إن مدرسة القالی قوت رواية اللغة والأدب فی أصولها المشرقية، وتأثرت الثقافة الأندلسية بتلقيها بثقافة متينة أصيلة ساعدت على ظهور شخصية أندلسية متميزة وأغنت المكتبة الأندلسية بالمؤلفات اللغوية والأدبية. (المصدر نفسه: ۳۷)

وللقالی دور بارز فی توجيه ركب الثقافة الأندلسية، وقد برز هذا الدور فی وسائل عدة، منها:

۱. جملة الكتب التی أتى بها القالی من المشرق، وهی تحتوی أمهات المصادر العربية والينابيع المشرقية. (عيد، ۱۹۹۲م: ۹۱)

۲. مؤلفاته ذات الطابع الأدبی واللغوی الدقيق والواضح، وكانت زادا للأجيال المقبلة تناقشها وتدرسها.

۳. قدّم للأندلسين أصولا معتمدة مقروءة على العلماء، فأوجد بذلک أساس الدقة اللغوية المعجمية.

٤. أثّر بشخصيته الفذة فی خلق طبقة من التلامذة كان منهم شخصيات مرموقة أدت دورا كبيرا فی نشر علم القالی ومنهجه، منهم الزبيدی، وابن القوطية والأخواف ابنی أبان بن سيد وغيرهم.

أما عن الكتب والدواوين الشعرية التی أدخلها القالی إلى الأندلس، فقد ذكر لنا ابن خير الإشبيلی أسماءها فی فهرسته، وهی كتب كان لها أثر فی تعضيد المدرسة الشعرية القائمة على اتباع مذهب العرب؛ وهذه الكتب هی: شعر ذی الرمة، وشعر عمروبن قميئة، وشعر جميل، وشعر أبی النجم العجلی، وشعر معن بن أوس المزنی، وشعر الحطيئة، وشعر النابغة الذبيانی، وشعر علقمة بن عبدة التميمی، وشعر الشماخ بن ضرار، ونقائض جرير والفرزدق، وشعر الأعشى ميمون بن قيس، وشعر عروة بن الورد، وشعر المثقب العبدی وشعر مالک بن الريب المازنی، وشعر النابغة الجعدی، وشعر كثير عزة، وشعر ابن حجر التميمی، وشعر القطامی، وشعر الأخطل، وجزء من شعر عمروبن شاس، وشعر عدی بن زيد العبادی، وشعر عبدة بن الطبيب، وشعر تميم بن أبی بن مقبل وشعر الأفوه الأودی، وشعر زهير بن أبی سلمی، وشعر عبيد بن الأبرص، وشعر المرقش الأكبر والأصغر، وشعر سلامة بن جندل، وشعر قيس بن الخطيم، وشعر الطرماح بن

الحكيم الطائى، وشعر امرئ القيس، وشعر دريد بن الصمة، وشعر أبى جلدة، وخمسة أجزاء من شعر رؤبة، وأربعة عشر جزءا من شعر الهذليين، وشعر عمر بن أبى ربيعة المخزومى، وشعر أبى النواس، وشعر جرير، وشعر طرفة بن العبد، وشعر طفيل الغنوى، وجزء من شعر أبى تمام بن أوس. (الجيلالى السلطانى، ٢٠٠٧م)

وحمل عددا من كتب الأخبار مثل أخبار نفطويه وهى تقع فى ثمانية وعشرين جزءاً، وخمسة أجزاء من أخبار ابن الأنبارى، وسبعة أجزاء عن ابن أبى الأزهر، وثمانية وخمسين من أخبار ابن دريد، وجزئين من أخبار وإنشادات عن الأخفش والمدخل للمبرد، والمهذب للدينورى، وكتاب الأحباس لأبى نصر، وجزء فيه عدة من أيام العرب ومعانى الشعر للجاهلى وكتاب البهى للفراء.. والضيفان لثعلب، والعروض لابن درستويه... . (المصدر نفسه)

فهذه المؤلفات التى ألفها أعلام المشرق فى اللغة والنحو والأدب التى آثرها أبوعلى وحرص أن تكون معه خلال رحلته، وفى حله وترحاله هى فى واقع الأمر امتداد لشخصيته ومرآة لعلمه. (دقاق، ١٩٨٢م)

فبهذه الدواوين الشعرية التى يغلب عليها الطابع العام لمذهب العرب وبهذه الكتب اللغوية التى أدخلها وأملى بعضها فى حلقات المتأدبين والمتعلمين، يعد القالى «أول من أسس علوم اللغة وآدابها فى الأندلس، وعليه تخرجت الطبقة الأولى من اللغويين وأكابر الأدباء فى هذه البلاد.» (الجيلالى السلطانى، ٢٠٠٧م)

ومما لا شك فيه أن هذه الكتب التى أدخِلت إلى الأندلس، خاصة كتب الشعر قد أسهمت فى تثقيف النشء الأندلسى، الذى كان يتطلع إلى معرفة ما وصل إليه المشارقة فى مذهبهم الشعرى، ويبدو للدارس أن هذه الكتب اللغوية والدواوين الشعرية كانت تؤلف إرهاصات أولية مهدت لرسوخ المدرسة القالية التى كانت لها ـ فيما بعد ـ آثار بعيدة فى الدوائر العلمية والأدبية الأندلسية. (المصدر نفسه)

ما أدخله أبوعلى القالى من الكتب فى شتى العلوم قد أسهمت فى تعميق الطابع المشرقى للدوائر العلمية والأدبية فى بلاد الأندلس، إذ أقبل أهل العلم والأدب على قرائتها والاطلاع على ما فيها رغبة فى تأصيل الثقافة المشرقية بينهم، ومحاولة لخلق

مناخ علمى وأدبى يستطيعون به مجاراة ما وصل إليهم من بلاد المشرق. فنجدهم وقد تمكنت فيهم ثقافة المشرق يعمدون إلى دراسة وشرح ما قرؤوه من كتب، ميسرين بذلك ومقربين إلى الأذهان والعقول ما جاد عليهم المشرق من ضروب القول وفنون المعرفة، ومشجعين فى الوقت ذاته أدباءهم وشعراءهم على اتخاذ ما شرحوه مثالاً يسيرون عليه فى إبداعاتهم وإنتاجاتهم الخاصة. (المصدر نفسه) وهذا ما دعا المستشرق بروكلمان إلى القول: «أما الأندلس فكان أو ل من نقل إليها علم الأدب أبوعلى القالى...» (دقاق، ١٩٨٢م)

ولا عجب فى ذلك، فقد كانوا يعيشون فى تلك الجزيرة وعيونهم شاخصة إلى المشرق حيث ثقافتهم العربية الأصيلة ومنبع لغتهم العربية ومصدر تقاليدهم الفنية الراسخة، ولم يكن ليغيب عنهم قط أنهم هنا الفرع وأن هناك الأصل، ولهذا كانوا يحسون بما كان يحس به كل فرع من نزوع نحو أصله. بل إن هذا الوضع النفسى كثيراً ما كان يجنح بذويه إلى غلوهم فى هذا الالتحام وحرصهم على منافسة ما يفد إليهم من وطنهم الأول وسعيهم إلى محاكاته أو مجاراته. (المصدر نفسه)

وليس غريباً أيضاً أن نجد كبار النقاد ومشاهير الأدباء يحذون حذو المشارقة فى التأليف الأدبى، وفى تبنى المفاهيم الجمالية للشعر والأدب على العلوم، ويكرهون كل خروج عما هو مألوف ومأثور عند أعلام الأدب والشعر فى المشرق العربى إذ ذاك. والملاحظ فى هذا الاتجاه أن ابن عبد ربه قد ألف العقد الفريد محاكياً ابن قتيبة فى عيون الأخبار، وأن ابن بسام فى كتابه الذخيرة يحاكى الثعالبى فى يتيمة الدهر. (المصدر نفسه)

قد ألف القالى كتباً كثيرة أملاها عن ظهر قلبه فى مواضع كثيرة منها كتاب "المقصور والممدود" وكتاب "فعلت وأفعلت" وكتاب "تفسير السبع الطوال". عرّف القالى فى مقدمة كتابه الأمالى هذا الكتاب بقوله: «وأودعته فنوناً من الأخبار وضروباً من الأشعار، وأنواعاً من الأمثال وغرائب اللغة. على أنى لم أذكر فيه باباً من اللغة إلا أشبعته، ولا ضرباً من الشعر إلا اخترته، ولا فنّاً من الخبر إلا انتحلته، ولا نوعاً من المعانى والمثل إلا استجدته.» (الخليل، ٢٠٠٦م)

والأمالى واحد من أربعة كتب ذكر ابن خلدون أن مشايخه وأساتذته جعلوها أصول

فن التأديب وما سواها تبع لها وفروع منها. وهذه الكتب الأربعة هى: أدب الكاتب لابن قتيبة، والكامل للمبرد، والبيان والتبيين للجاحظ، والأمالى لأبى على القالى. (فاتحى نژاد، ١٣٨٠ش: ٢١)

ومقدمة كتاب الأمالى سجل قيم يزودنا بمعلومات قيمة عن حياة القالى وأدبه، والكتاب نفسه– مع مظهره الأدبى العالى– يدل على ثقافة لغوية واسعة، وهو حافل بالفوائد اللغوية التى لاتوجد فى أى كتاب آخر.

والكتاب يضم بين دفتيه روائع الآثار المروية عن العصر الجاهلى والإسلامى والأموى وصدر دولة بنى العباس وهى نصوص أدبية رفيعة قد لاتوجد فى كتاب آخر سواء ما سجله القالى منها من النثر أم الشعر. (الخفاجى، ١٩٩٢م: ٢٥٥)

وخلاصه القول إن كتاب القالى دائرة معارف فى الأدب القديم، وهو ثمرة من ثمرات الرجولة المكتهلة، والإحاطة التامة، والثقافات الواسعة. وهو صورة لآداب المشرق فى مختلف العصور إلى آخر القرن الثانى الهجرى، وآداب المشرق كانت فى الأندلس من الطرف الجميلة، التى يحتفل بها، وتروى وتذاع. وليس فى الكتاب طبعاً شىء من آداب الأندلسيين وآثارهم، إنما هو صورة مشرقة واضحة لذوق أدباء المشرق وشعرائه ونقاده. (المصدر نفسه: ٢٥٦، ٢٥٧) ليس عجيباً بعد هذا كله أن يكون الأدب الأندلسى فى الكثير من نواحيه صورة صادقة عن الأدب العربى فى الشرق ونسخة ثانية تختلف فى بعض التفاصيل. (الدغلى، ١٩٨٤م: ٧٦)

وكتابه الآخر هو البارع وهو كتاب مسهب فى اللغة أو معجم كبير فى ألفاظ العربية، ولعل أهميته الأولى ترجع إلى أنه أول معجم عربى عرفته الأندلس، وذلك فى منتصف القرن الرابع الهجرى، وكأنما قدر لتلك الربوع الأندلسية أن تنتظر إلى ذلك الحين حتى يفد عليها لغوى كبير من المشرق ويضع لها هذا المعجم الرائد. (دقاق، ١٩٨٢م)

والبارع – فيما يقدر بعض الباحثين– أوسع المعاجم التى ظهرت حتى ذلك الحين، ويبدو البارع من خلال استقراء ما بين أيدينا من مواده ومن خلال وصف القدماء له أنه كان ضخما. فقد ذكر ياقوت أنه يحتوى على مائة مجلد وثلاثة آلاف ورقة على حين جاء فى وفيات الأعيان وإنباه الرواة أنه يشتمل على خمسة آلاف ورقة. وأغلب الظن

أن المشارقة الذين تكلموا عن البارع لم يصفوه من كتب، ولذلك يبقى أبوبكر بن خير وهو أندلسى، عرف بتدقيقه، أفضل من يحدثنا عن هذا المعجم الرائد. إنه يحدد حجمه بقوله: «إنه فى مائة وأربعين وستين جزءاً، عدد أو راقها أربعة آلاف ورقة وأربع مائة ورقة وست وأربعون ورقة.» (المصدر السابق)

ويبدو أن تأليف البارع استغرق من أبى على جهداً كبيراً ووقتاً مديداً. إذ «كان ابتداؤه أوله سنة ثلاث مائة وتسع وثلاثين، وكماله فى شوال من سنة ثلاث مائة وخمس وخمسين أى إن أبا على أنجزه قبل عام من وفاته. ولايضارع البارع فى الأندلس سوى كتاب المحكم الذى صنفه ابن سيده الأندلسى، فى القرن الخامس الهجرى، أى فى العصر الذى تلا عصر أبى على.» (المصدر نفسه)

يبدو من هذه المقدمات أن كتاب الأمالى والبارع أهم مولفات أبى على القالى فى الأندلس بالنسبة إلى سائر مؤلفاته ولهذا أشار معظم الأدباء إلى هذين الكتابين وشرحوا محتواهما ونصوصهما.

والجدّ هو الطابع الغالب على كتب القالى، ولا سيما كتابه الأمالى؛ فقلّما يجنح فيه إلى الفكاهة والهزل، أو البذاءة والمجون، وقلّما نجد فيه أشعاراً وأخباراً تخدش الحياء وتجرح الشعور. وقد خالف القالى بنهجه هذا منهج أصحاب الموسوعات الأدبية كالجاحظ وابن قُتَيْبة وأبى حيّان التوحيدى، وابن بسّام، وهذا دليل آخر على شخصية القالى الجادة الرصينة العفيفة. (الخليل، ٢٠٠٦م)

وأخيرا إن الأندلس عرفت فى القالى "المعلم الأول" فى اللغة والمعجم، وقد سلكت الدراسات التالية نهجه، والنشاط المعجمى فى الأندلس يمثل فرعاً من فروع الثقافة التى يظهر فيها تأثير المدرسة القالية وتوجيهها. (عيد، ١٩٩٢م: ٩٢)

النتيجة

– نافست الأندلس الأموية بغداد العباسية فى العلوم والآداب والفنون، ولهذا عملت على استقدام أرباب الأدب والعلم والنحو واللغة من بغداد، فازدهر العلم واللغة فى الأندلس، فوفدت إلى بلاد الأندلس جماعة من العلماء، منهم أبوعلى القالى.

-كانت الثقافة الأندلسية فى بداية الأمر تتركز فى العلوم الأدبية واللغوية والدينية، ويعد القالى أول من أسس علوم اللغة وآدابها فى الأندلس، لأنه هو الذى أدخل الكتب اللغوية ودواوين المشارقة إليها. والكتب التى أدخلها القالى فى الأندلس وما ألّفه فى العلوم الأدبية تعتبر من أهم المعاجم اللغويه فى الأدب العربى. فضلا عن ذلك إنه قد اهتم بالتدريس وعليه تخرجت الطبقة الأولى من اللغويين وكبار أدباء الأندلس. وقد أقبل الناس عليه فسمعوا منه وتأثروا بعلمه وثقافته المشرقية، وهذا كله قد أسهم فى تأصيل الطابع المشرقى للدوائر العلمية والأدبية فى بلاد الأندلس، وأصبح الأدب الأندلسى فى الكثير من جوانبه صورة صادقة عن الأدب العربى فى الشرق.

- مؤلفاته (كالأمالى والبارع فى اللغة و...) تعد من أمهات اللغة العربية وآدابها، وكثيرا ما يرجع إليها علماء اللغة والأدباء للإفادة منها.

المصادر والمراجع

البستانى، البطرس. لاتا. دائرة المعارف (قاموس عام لكل فن ومطلب). المجلد الأول. بيروت: دار المعرفة.

الجيلالى السلطانى. ٢٠٠٧م. «الثقافة المشرقية وأثرها فى ترسيخ مذهب العرب فى الشعر الأندلسى». مجلة التراث العربى. العدد ١٠٦.

الحموى، ياقوت. ١٩٨٠م. معجم الأدباء. المجلد الرابع. بيروت: دار الفكر.

الخفاجى، محمد عبدالمنعم. ١٩٩٢م. الأدب الأندلسى، التطور والتجديد. ط١. بيروت: دار الجيل.

الخليل، أحمد. ٢٠٠٦م. مشاهير الكرد فى التاريخ الإسلامى (الحلقة الثامنة والعشرون) أبوعلى القالى، موقع مركز كلكامش.

http//:gilgamish.org/viewarticle.php?id=history.20090305-16817.

دقاق، عمر. ١٩٨٢م. «رائد التأليف المعجمى فى الأندلس أبوعلى القالى». مجلة التراث العربى. العدد التاسع. السنة الثالثة.

الدغلى، محمد سعيد. ١٩٨٤م. الحياة الاجتماعية فى الأندلس وأثرها فى الأدب العربى وفى الأدب الأندلسى. ط١. بيروت: منشورات جار أسامة.

سالم، عبد العزيز. لاتا. تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس. الإسكندرية: مكتبة الأنجلو المصرية.

السامرايى، خليل ابراهيم وزملاؤه. ١٩٩٩م. تاريخ العرب وحضارتهم فى الأندلس. ط١. بيروت: دار

المدار الإسلامی.
السیوطی، جلال الدین عبد الرحمن. ۱۹۹۸م. بغیة الوعاة فی طبقات النحویین والنحاة، تحقیق محمد أبوالفضل إبراهیم. ط۱. بیروت: المکتبة العصریة.
عتیق، عبدالعزیز.لاتا. الأدب العربی فی الأندلس. بیروت: دار النهضة العربیة.
عمیرة الضبی، أحمد. ۲۰۰۵م. بغیة الملتمس فی تاریخ رجال أهل الأندلس (ذیل لکتاب جذوة المقتبس للحُمیدی). شرحه صلاح الدین الهواری. ط۱. بیروت: المکتبة العصریة.
ضیف، شوقی. ۱۹۸۹م. تاریخ الأدب العربی عصر الإمارات. القاهرة: دار المعارف.
عید، یوسف. ۱۹۹۲م. النشاط المعجمی فی الأندلس. ط۱. بیروت: دارالجیل.
فاتحی نژاد، عنایت الله.۱۳۸۰هـ ش. أمهات المصادر العربیة. ط۲. طهران: انتشارات سمت.
الفاخوری، حنا. ۱۳۸۵ هـ ش. الجامع فی تاریخ الأدب العربی(الأدب القدیم). ط۳. قم: منشورات ذوی القربی.
القالی، أبوعلی. لاتا. الأمالی. الجزء الأول. بیروت: دار الفکر.
محمد، محمد سعید. ۲۰۰۱م. دراسات فی الأدب العربی. ط۱. لیبیا: منشورات جامعة سبها.